إضاءات نقدية (فصلية محكمة)
السنة التاسعة – العدد السادس والثلاثون – شتاء ١٣٩٨ش /كانون الأول ٢٠١٩م
صص ١٦٣ ـ ١٣٧

رستم بين بطل فى المذهب البرغماتى ونقيض البطل فى الفلسفة المثالية؛ دراسة فى اتجاه الفلسفة البرغماتية

سيده مريم ميرحسينى*
فاطمة حيدرى (الكاتبة المسؤولة)**

الملخص

البرغماتية هى أحدث الاتجاهات الفلسفية فى العالم. وهى تلقى نظرة خاصة على مكوّنات اليوتوبيا البشرية وتقترح مبدأ العمل على أساس الاستنتاجات، وبعبارة أخرى، محاولة العمل للوصول إلى منفعة حقيقية. تنظر هذه الفلسفة إلى قضايا مثل العدالة والقانون والأخلاق بنظرة مغايرة للفلسفة القديمة. تعدّ رائعة فردوسى "الشاهنامه"، باعتبارها كتاباً ملحمياً، انعكاساً متعالياً لثقافة أمة ونموذجاً رائعا لطقوسها، وبالتالى يمكن أن تكون ذا أهمية كبيرة لمنظّرى الفلسفة البراغماتية. وبنظرة موازية على المجتمع الأسطورى للشاهنامه وتحليل سلوك الشخصيات فيها؛ مثل رستم وأبطال الشاهنامه الآخرين على أساس هذه المؤشرات، تظهر العلاقة بين يوتوبيا فردوسى والفلسفة البراغماتية. قامت الباحثتان بعد تقديم الفلسفة البراغماتية والنظريات المختلفة حولها، بالمقارنة بين المجتمع المثالى للشاهنامه واليوتوبيا البراغماتية، وقد اعتمد البحث المنهج الوصفى التحليلى، مستنداً إلى أبحاث المكتبات وتجميع المصادر المترجمة المكتوبة المتعلقة بالفلسفة البراغماتية. وفى هذا المقطع، مع إلقاء نظرة خاصة على شخصية رستم كرمز أسطورى وممثل إيرانى فى الشاهنامه، نجد أن أفعال رستم وأبطال الشاهامنه الآخرين أخذ الجانب العملى البرغماتى، وقد أثرت هذه الأفعال فى ترسيخ أهدافهم وتنمية مجتمعهم.

الكلمات الدليلية: البرغماتية، الأخلاق الواجبة، الشاهنامه، رستم، الاحتيال، النفعية، الأخلاق.

---

*. طالبة دكتوراه فى اللغة الفارسية وآدابها، فرع كرج، **جامعة آزاد الإسلامية**، كرج، إيران
maryam.mirhoseini@kiau.ac
. أستاذة مشاركة فى اللغة الفارسية وآدابها، فرع كرج، **جامعة آزاد الإسلامية، كرج، إيران
Fateme_heydari10@yahoo.com

تاريخ الاستلام: ١٣٩٨/٤/١٧ش تاريخ القبول: ١٣٩٨/٩/١ش

المقدمة

تعدّ الشاهنامه أعظم ملحمة شعرية وتاريخية فارسية تحتوى إضافة إلى الروايات التاريخية على قصص وحكايات مستقلة عن التاريخ والسير التاريخية، كحكاية زال ورستم، رستم وسهراب، بيژن ومنيژه، رستم واسفنديار، بيژن وگرازان، كرم هفتواد وغيرها من الحكايات. والعامل المشترک بين هذه القصص والحكايات، هو سلوک البطل الوطنى باعتباره المنقذ المثالى والخيالى العظيم والذى يؤدى إلى حد كبير إلى انتصار الفرس. وما يستنتج من بطولات الشاهنامه، هو أن أفعال تلک الشخصيات فى بعض الأحيان تنتهک المبادئ الأخلاقية التى تظهر فى الفلسفة والثقافة الشرقية والذى تجعلها شخصيات رئيسية تفتقر إلى المواصفات البطولية التقليدية وما يعرف بنقيض البطل. الفعل البطولى الإيرانى، وعلى رأسهم رستم، هو مجموعة من تضارب الأخلاق ومناقض للأخلاقيات التى تجاهلها الإيرانيون الوطنيون إلى حد كبير بسبب الهدف الكبير المتمثل فى إنقاذ إيران وانتشار العقيدة الزردشتية، ولكنها لم تكن خافية عن الأخلاقيين، كما أنها تشكل أحد الخلافات المثيرة للجدل بين النقاد فى هذا المجال.

للأخلاقيات والفضائل الأخلاقية تعريفات ثابتة فى الفلسفة الشرقية والفلسفة الإسلامية. يتحدث خواجة ناصر الدين الطوسى فى كتابه الأخلاق الناصرى عن الفضائل الأخلاقية باعتبارها (الحكمة) إذا كان هناک اعتدالاً فى الحواس الإنسانية و(الشجاعة) فى حال كظم الغيض و(العفة) فى حال ضبط النفس والتحكم فى القوة الشهوانية وعندما تتحقق هذه الفضائل الثلاث وتمتزج مع بعضها بعضاً، يتم تحقيق فضائل العدالة. وتدعى فى النصوص الدينية الصفات الحسنة (الفضائل) وفى حال تجاوزها أو تهاون فيها تدعى السمات السيئة (رذائل). (طوسى، ١٣٦٤ش: (١١٢-١١ تتوافق هذه التعريفات مع أفكار أرسطو، والتى ذكرت فى كتاب علم الأخلاق إلى نيقوماخوس. إن مسألة أخلاقياتنا بين فلاسفة العصور الوسطى لها جذورها فى أخلاقيات أرسطو إلى أن ظهر شكل جديد فى عصر التنوير مع ظهور فلسفات تجريبية مثل ديفيد هيوم وجون لوک. تعتبر نظرية هيوم الأخلاقية العمل بأنه معيار الأخلاق، وهو الذى يحدد سلوكنا ما إذا كان على الصواب أم لا. تعتبر الفلسفة البراغماتية، التى

يركز عليها هذا البحث ولادة جديدة لفلسفة هيوم التجريبية في حلّتها الجديدة كمدرسة فلسفية أمريكية، تتمسك بما هو متوقع ومفيد باعتباره حقيقة، ووفقا لمبدأ العمل هذا، يعتبر عمل أو سلوك صواباً ومفيداً أحياناً وفي حالة أخرى وحين آخر يفقد فعاليته. في بعض الأحيان، ومن أجل تحقيق الهدف المنشود، يجب علينا مراعاة المصلحة العامة في المجتمع والمهم هو تحقيق الهدف وليس الوسيلة لتحقيقه. من وجهة النظر هذه، فإن قضية الأخلاق والفعاليات الاجتماعية في الفلسفة البراغماتية لها دلالة تتعارض مع الفلسفة الشرقية والفلسفة الإسلامية، وكذلك الفلسفة العقلانية الغربية، وموضوع السعادة الإنسانية.

أسئلة البحث

يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. من وجهة نظر فلسفة البراغماتية، هل رستم بطل عملي أو نقيض للبطل ينتهك الأطر الأخلاقية؟

٢. هل برر فردوسي انحيازه في توصيف بطله، أم بطولاته الملحمية تعبير خالص لا ينقصه شيء؟

٣. هل معايير الأخلاق والنفعية والعدالة والتسامح التي تم التعامل معها في الفلسفة البراغماتية تتفق مع تلك الموجودة في الشاهنامه؟

٤. هل تأتي اليوتوبيا البشرية (المدينة الفاضلة) من خلال الأفعال العملية للجهات الفاعلة؟

فرضية البحث

يبدو أن تصرفات أبطال الشاهنامه وأبرزهم رستم، تتماشى مع ما يسمى الفعل العملي البراغماتي في الفلسفة البراغماتية، وفردوسي في تعامله مع أبطال الشاهنامه جعل جميعهم براغماتيين، معتقداً أن انتصار الأبطال، هو نتيجة أفعال تلك الشخصيات البرغماتية.

خلفية البحث

هنـاک العديـد من الأطروحـات والمقالات حـول البراغماتية التـی حللت هذه الفلسفة من وجهة نظر المنظرين المختلفة التی يمكن العثور عليها فی "براغماتية تشارلز سـاوندرز بيرس" للكاتب: أكبر غضنفری والمشـرف: عبدالكريم رشـيديان. كما يمكن الإشـارة إلى "أصول البراغماتية الحديثة لريتشـارد رورتـی" للكاتب محمد أصغری. يوجد مقال أيضا بعنوان "تفاعل البراغماتية مع ما بعد الحداثة فی فلسـفة ريتشـارد رورتـی" للكاتب محمد أصغری، والذی كان موضوع اهتمـام كبير للكاتب. وفی مجال النقد الأدبی وتطبيق البراغماتية فی النصوص الأدبية، يمكن الإشـارة إلى مقال بعنوان "البراغماتيـة (العملانية) فی كليلة ودمنـة لفاطمة مهربانی ممـدوح (المؤلف) والمؤلف المسـؤول (محمد آهی) فإنه علـی الرغم من نجاحه فی إدخال مكوّنـات البراغماتية، إلا أنه فی نقده لكليلة ودمنة لا يشـكل انتقاداً سـليماً على أساس معايير البراغماتية. وفيما يخص الشاهنامه لفردوسی وشخصيته المحورية "رستم"، أنجزت دراسات وأبحاث على نطاق واسـع من مختلف الجوانب الأدبية والنفسـية والفلسفية والمقارنة. نشير إلى بعضها؛ مقالة بعنوان "ميزة رستم فی الشاهنامه، الطابع الإنسانی المثالی" للكاتب أصغر نهچيری و"تحليل شـخصية رسـتم فی معركته مع سـهراب" لمريم صادقی، "قصة رستم دراسـة مقاربة لعلم الأخلاق إلى نيقوماخوس تأليف أرسطو" لـ ذوالفقار علامی وليلا چاوشـی آقاياتی. ولكن كما جاء مسـبقا، لم يكن هناک بحث ناجح فی مجال التحليل النصـی الأدبی من حيث السـمات العملية للبراغماتية، ولم يتم إجراء دراسـة عملية لشخصيات الشاهنامه -خاصة رستم- تظهر كرسالة أو مقالة علمية. فنظراً إلى التواتر المنخفـض للبحوث التأويلية الفلسـفية فی الأدب الذی يـدرس النصوص الأدبية من منظور النظريات الفلسـفية ويوفر مؤشـرات لها، تظهر الحاجة إلى مزيد من البحث فی هذا المجال أكثر من ذی قبل.

أهمية البحث

هذا البحث الذی يسـتند إلى الفلسـفة البراغماتية ويسعى إلى توفير إطار مناسب

لتوفير مجتمع ديمقراطي يعتمد على العملانية، يفترض دائما نوعين من العمل الاجتماعي والأخلاقيات؛ العمل الغائي أو النفعي المناسب مقابل العمل المثالي والوظيفي الموجه إلى العمل. وهذا التناقض بين الأفعال المثالية والبراغماتية يبرز بشكل ملموس في الشاهنامه وشخصياته. ورستم بصفته محوراً لكثير من قصص الشاهنامه والذي تؤثر أفعاله وأعماله في تحديد مصير بلده وشعبه، تظهر منه أحياناً سلوكيات متناقضة. ومن هنا تقع الشاهنامه وخاصة رستم موضع شك وترديد من قبل الأخلاقيين الذين إما أنهم متأثرون بالأخلاق الشرقية أو متمسكون بالأخلاق الكانتية كمبدأ توجيهي للسعادة الإنسانية. ولكن الحقيقة أن هذه الأخلاقية على الطرق السابقة لا تؤمّن الاستجابة لأهداف ومصالح المجتمعات المرسومة. والغرض من هذا البحث هو توفير رؤية حديثة أكثر اتساقًا وأخلاقية للمبادئ التوجيهية الأخلاقية والاجتماعية التي وضعها الفلاسفة السابقون نظراً لواقع المجتمعات الحالية حتى يمكن منحها جانباً عملياً وإعطاؤها رؤية واقعية لقضية الإنسان ومجتمعه.

البراغماتية (الذرائعية)[1]

المصطلح مشتق من الكلمة اليونانية pragma، معناه العمل. «إنها نظرية يتم بموجبها معيار صحة المعتقد بالعمل". (حلبي، ١٣٩٣ش: ٩٦٤) وقد ترجم المصطلح بفكرة مبدأ العمل أو مبدأ النفعية العملية، وأحيانا العملانية. ظهرت هذه الفلسفة في أمريكا في القرن التاسع عشر. إن الأفكار التي جاءت من العالم القديم، وكذلك الكميات الهائلة من العلوم والمعرفة الجديدة المتاحة للأميركيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بطبيعة الحال لم تنسجم مع الأطر والمدارس الموجودة في السابق، فهي تحتاج إلى إطار جديد يكون أكثر اتساعاً وشمولاً. لكن العقل الأمريكي لم يكن قادرًا على بنائه أو قبول الأطر الجديدة المقدمة. وقد اكتفى بتصنيف عناصر تلك المجموعة الكثيفة لاستخدامها عند الحاجة. «واعتبر أن المنفعة والغاية هي معيار لصحتها، وتخلص من كل الحجج القديمة حول معايير الحق والحقيقة.» (اسكفلر، ١٣٦٦ش: ١١٠) يعتبر

1. Pragmatism .

الفيلسوف الأمريكى تشارلز ساندرس بيرس أوّلَ من ابتكر كلمة البراغماتية فى الفلسفة المعاصرة وأوّل من استخدم هذا اللفظ عام ١٨٧٨م فى وصفه لنظرية المعنى. باعتبار أن التطبيق العملى للفظة أو الفكرة فى الحياة الحقيقية تمنحها المعنى. من وجهة نظر بيرس إن تصورنا لموضوعٍ، ما هو إلا تصورنا لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر.

نشأة البراغماتية التاريخية

تمتد فترة البراغماتية الأمريكية من نهاية الحرب الأهلية إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وهى الفترة التى تحوّلت فيها أمريكا من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضوج. كانت المجتمعات الريفية الصغيرة تتحول إلى بلد حضرى وصناعى كبير، ولم تكن هذه التغييرات علمية بل كانت اجتماعية وروحية.

نشأة البراغماتية الفلسفية

تمثل فلسفة كانت وهى الفلسفة الأهم والأكثر تحديدا فى القرن الثامن عشر، نقطة انطلاق للبراغماتية ومواجهة التيارين الرئيسيين للعقلانية[1] والتجريبية[2]. (فروغى،١٣٩٣ش:٦٧٦) يمكن للمرء أن يطلق على البراغماتية ولادة جديدة لفلسفة "هيوم" التجريبية فى حلتها الجديدة أو فلسفة "جون لوک" الوضعية المنطقية للمادة التجريبية. كان أحد الأهداف الرئيسية للبراغماتية هو جعل العلم الحديث يتماشى مع الفلسفة وانتقاد المواقف الفلسفية التقليدية فى ضوء التطورات العلمية الحديثة. ثم تخلّى البراغماتيون بحزم وفى آن واحد، عن العديد من المبادئ الثابتة والمطلقة والقواعد الأساسية، لافتين إلى الواقع والعمل والقوة. وهذا يعنى سيطرة الطبيعة التجريبية مقابل الطبيعة العقلانية. «اتبعت البراغماتية أولاً أفكار الوضعية المنطقية (فلاسفة حلقة فيينا) وفلسفة برتراند راسل فى التحليل المنطقى واتخذت الفلسفة التجريبية المطلقة منهجاً لها.» (المصدر نفسه: ٤٩١) لكنها ابتعدت فيما بعد عن مبادئ الفلسفات السابقة. «يرى

1. Rationalism .
2. Empiricism .

البراغماتيون فلسفتهم على عكس كل من العقلانية والتجريبية.» (دريدا، ١٣٨٥ش: ٤١)

نشأة البراغماتية الاجتماعية

إن التيار الفلسفي للبراغماتية هو أيضاً عبارة عن حركة وتيار اجتماعي، وشأنه شأن التيارات الفلسفية الأخرى، يعكس الظروف التاريخية في فترة نشأته والمجتمع الذي نشأ فيه. «بالعودة من كانت إلى هيوم، وخاصة إلى بيركلي، ينبغي النظر إلى تلك الفترة في ضوء التطورات الاجتماعية والفكرية العظيمة، أي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. خاصة في ظل تكثيف الصراع الطبقي ونشوء الماركسية، وكذلك الظروف الخاصة وسمات المجتمع الأمريكي وطريقة تفكير الأمريكيين ورؤيتهم للعالم. هذه التطورات لا يمكن أن تغير من وجهات النظر الفلسفية والفكرية للطبقات الرجعية. كانت مهمة البراغماتية وغيرها من التيارات الفكرية المشابهة توفير أساسيات النظرية لهذا التحول والتراجع على حد سواء. (شيفلر، ١٣٨١ش: ١١)

الأصول العلمية للبراغماتية

كان الصراع بين قانون نيوتن ومعادلات ماكسويل أحد أخطر الأزمات في تاريخ العلم في القرن العشرين. كانت هناك قضايا في مجال الفيزياء الذرية أوضحت أن قوانين الميكانيكا الكلاسيكية لا يمكن تطبيقها في هذا المجال. وفي الواقع ذكر بعض العلماء أنه لا يمكن تفسير هذه الظواهر على الإطلاق. قام سبنسر بتبرير التطور وفقا لمبادئ الميكانيكا، ولكن على خلافه اعتقد بيرس أنه لا يمكن لأي من القوانين ولا مبادئ الميكانيكا تفسير التباين الواضح في الطبيعة. كانت هذه هي القضايا التي استولت على منظري البراغماتية ولا يمكن الإجابة عليها في الفلسفات السابقة والعلوم السابقة. (المصدر نفسه: ٥٣)

الخصائص العامة للبراغماتية

١. التركيز على العالم الحقيقي (الواقعية): ليس على ما يجب القيام به في عالم مثالي.

٢. التركيز على الخبرة: بناءً على نظريات عملانية عن الحقيقة، فإن الحقائق هي

المعتقدات التى تتشكل من خلال التجربة. (Audi ,1995: p 638)

٣. النسـبية: يتحدث ديوى عن البحث بدلاً من الحقيقة، والغاية من ذلک استيعاب مقتضى الحال ومراعاته لاتخاذ الإجراءات المناسبة. (سكوفلر، ١٣٦٦ش: ١٩)

٤. التوجه نحـو الكفاءة وأهميتها، بالنظر إلى النتائـج العملية للأفكار. (Putnam, 2001: p1361)

٥. الذرائعية (النظرية النفعية)؛ يقول جيمس: الحقيقة هى النفع الذى تحققه من خلال التجربة العملية. (جيمس، ١٣٧٠ش: ١٠)

٦. الوسـيلة: أى أن الأفكار والعقائد ما هى إلى وسـيلة لتحقيق الأهداف. (Tiles, 2000: p705)

رواد النظرية البراغماتية

يقول تشارلز سـاندرز بيرس[1]، أستاذ الرياضيات وعلم الفلک فى جامعة هارفارد وعالم الرياضيات الأمريكى البارز، إنه وصل إلى الفلسـفة من خلال كانت، بينما يعتبر نـوع تفكيره إنجليزيـاً. إن مبدأ بيرس العملى يرتكز على العلاقـة بين الخيال والعمل. اعتقـد بيرس أن مجرد عنصر عشـوائى سـيخلق انحرافات مبعثرة عـن القانون. وفقاً لبـيرس، لا يمكن أن تكون طريقة الإدراک الحسـى للطبيعة مبـدأ موثوقاً للبحث. وقد هاجم بيرس أيضاً الجبرية، أى أنه ينتهک الاعتقاد السائد بأن كل حقيقة واحدة تتمتع بشرعية وقانونية.

بقى المبدأ الذى طرحه بيرس بعيداً عن الأنظار لمدة عشرين عاماً حتى أعاد ويليام جيمـس ذلک المبدأ. لم تشـتهر البراغماتيـة على يد بيرس بل بلغت الشـهرة على يد ويليام جيمس، وليس فى عام ١٨٧٨م ولكن فى عام ١٨٩٨م. «صاغ جيمس مصطلح البراغماتية لشـرح نظريـة الحقيقة. وفى نظرية الحقيقة، يضع جيمس الحقيقة النسـبية مقابـل الحقيقة المطلقة فى الفلسـفة العقلانية». (شـيفلر، ١٣٨١ش: ١٠) وقال جيمس «الحقيقة هى شـيءٌ مرن والاعتقاد به أمرٌ صحيح. وبما أن تحقيق ذلک يعدّ من الشروط

1. Charles Sanders Peirce .

الأساسية، فإن ما يتم تحقيقه أو ما أنجز هو أمر صحيح يمكن تصديقه. كما يعتقد أن الحقيقة هي أفضل حالة يمكن تصورها للبشرية وأفضل أمر يمتلكه وأنه يختلف عن المبادئ التى طرحها العقلانيون والمثاليون سابقاً حول الحقيقة.» (جيمس، ١٣٨٦ش: ٤٨) يتمتع برتراند راسل[1] أيضاً بأصل فلسفى مماثل لويليام جيمس، لكنه لا يقبل تجاوزاته فى البراغماتية.

حتى قبل ظهور البراغماتية، كانت الحقيقة تعتبر منفصلة ومستقلة عن الوجود الإنسانى، ولكن مع ظهور البراغماتية ساد الاعتقاد بأن الحقيقة ليست منفصلة عن الإنسان. (ساهاكيان، ١٣٨٠ش: ١٨٢) والسبب الوحيد لصحة الفرضية، هو فعاليتها وفائدتها فى الممارسة العملية. فى النهاية، الحقيقة فى عبارة ويل دورانت «حدث يحدث للأفكار والمعتقدات. الحقيقة هى التحقيق العملى.» (ديورانت، ١٣٧٠ش: ٤٤٦) «وفقاً لذلك، لا مكان للمثالية والنموذجية فى شىء، كما يمكن اعتبار البراغماتية ردّ فعل مقابل المثالية.» (سيزيان موسى آبادى، ١٣٨٩ش: ١٠٩)

ريتشارد رورتى[2] هو أحد أكثر الفلاسفة المعاصرين الأكثر جدلا والأشد صخباً واضطراباً والذى كان دائما موضع انتقادات شديدة وحادّة. إنه فيلسوف تحدّث صراحة عن نهاية الفلسفة. من وجهة نظره، وطأ الغرب فى ما وراء الفلسفة من المرجح أن تتجاهل الفلاسفة بالمعنى التقليدى للفيلسوف ويعامل الفلاسفة على أنهم علماء ميتافيزيقيون. «سر أفكار رورتى تنحصر فى كلمة واحدة هى؛ أنه يجب أن يؤدى كل بحث إلى هدف يتجاوز المصالح الشخصية والاجتماعية، ويسعى فقط وراء تحسين تضامن المجتمع. تأثر رورتى بوجهات نظر نيتشه وهايدجر، وخاصةً وينجنشتاين، بالإضافة إلى فلاسفة مدرسة أصالة العمل الأمريكيين؛ جيمس وخاصة ديوى[3].» (دريدا، ١٣٨٥ش: ٢٠) لقد نشأ منذ الطفولة على الجناح اليسارى، وكان يكنّ احتراماً للمفكر المارسى تروتسكى[4] وللأديب ت.س إليوت، وهو يعدّ أول فيلسوف براغماتى قام بربط الأفكار

1. Bertrand Arthur William Russell .
2. Richard Rorty .
3. John Dewey .
4. Leon Trotsky .

البراغماتيــة بالقضايــا الاجتماعية ويعيد تعريف المفاهيم الإنســانية. توســعت أفكار رورتــى البراغماتية إلى قضايا اجتماعية، وبالتالى تأخــذ البراغماتية بجدية المطالب المشــروعة للجوانب الإنســانية الأخرى مثل الأخلاق والفعاليــات الاجتماعية والفن والشعر والتاريخ والدين. وهكذا تم تعميم الواقعية البراغماتية إلى المجال الاجتماعى، بعد أن سعت فى البداية لاكتشاف الحقيقة والمعنى، وقدمت المواضيع السامية كالأخلاق والعدالة والتسامح والنفعية.

قضية النفعية

البراغماتية هى نهج فى الفلســفة تقبل بعض القضايا التى تتعلق بالممارسة العملية فى حياة الإنســان. يطلق مؤيدو هذا النهج على أنفسهم العملانيين المتسامحين، ويصفون المجموعــة بأنها معتدلة (أو محافظة). ومــن وجهة نظر البراغمات فإن الحقيقة وأفكارنا ومفاهيمنــا وأحكامنا وآرائنا هى فى المنفعية العملية لحياتنا. «وفقا للنظرية، فإن معيار الحقيقــة، هو النفــع والفائدة والنتيجة، وتثبت حقيقة كل شــىء فــى النتيجة النهائية.» (دريدا ، ١٣٨٥ش: ٣٠)

يطلق على من يعطون الأولوية للممارسات العملية والمصالح اليومية على معتقداتهم، رجال الدولة والسياســيين البراغماتيين بمعنى آخر، هم مــن يتعاملون بالمرونة لتحقيق أهدافهم أو البقاء فى السلطة. فى مدرسة البراغماتية، الأفكار والمعتقدات هى أدوات لحل القضايا والمشاكل الإنسانية؛ طالما كانت لها آثار مفيدة، فهى صحيحة وحقيقية وقد تصبــح خطأ فــى الغد. بناء على هذا، قد تكون الفكرة حينــاً فعالة ومفيدة، فهى تكون حقيقيــة بالفعل؛ ولكنها قــد لا تكون لها نتائج مرضية حيناً آخــر فحينها تصبح نظرية خاطئة. فـ«الحقيقة ليســت ثابتــة وقابلة للتغيير، وجميع الأمور تخضــع للنتائج، فالحق أمر نســبى تابع للزمان والمكان وفترة محددة من العلم والتاريخ.» (آدورنو، ١٣٩٥ش: ٤٣) مــن وجهة نظر جيمس، الفكرة تحمل فى طياتهــا الصواب والخطأ معاً. لأن فكراً واحــداً وســلوكا محدداً قد يكون مفيــداً لبعض الأفراد وقد لا يكــون مفيداً للآخرين. وفقا للمبدأ العملى: «بما أن الطبيعة تستمد مصداقيتها من تصوراتنا، فالحقيقة هى مجرد

منهـج للتفكير ينبغي الأخذ به، وهذا هو جوهـر المبدأ البراغماتي.» (نحن نمنح الطبيعة مصداقيتها) (شيفلر، ١٣٨١ش: ١١)

قضية العدالة

يعتقد جاک دريدا أنه إذا كان هناک شـيء يسـمى العدالة، فلا يمكن ترسـيمه آو تفكيكه خارج القانون. (Lucy, 2004 : 63) في رأى دريدا، لا يمكن أو لا ينبغي لأى نموذج سياسـي أن يحاول فرض نفسـه باعتباره يجسد العدالة. وأكبر خطر في السياسة هو الشـمولية التي نراها بجميع أشكالها الأخيرة: الفاشـية الحديثة والقومية والطائفية والثيوقراطية. «تستند الشـمولية إلى افتراض السياسة والاجتماع أمراً واحداً، وترى أن شـكلاً سياسياً معيناً أو دولة معينة أو مجتمعا أو مجالاً إقليمياً محدداً، يجسد العدالة.» (دريدا، ١٣٨٥ش: ١٢)

من المنظور البراغماتي، الشأن السياسي والشأن الاجتماعي متميزان. وفي الوقت نفسـه، لا يمكن الحصول عليهما في آن واحد. في بعض الأحيان يتم تجاهل العديد من القضايا الاجتماعية في الشؤون الاجتماعية ولا يمكن تحسين المجتمع وإصلاحه في ظل هذه المواجهات. والسياسيون البراغماتيون هم من ينظرون إلى القانون باعتباره عنصرا قابلاً للتفكيک، وعند الضرورة يقومون بتفكيک قانون تتجسد فيه العدالة.

قضية الأخلاق

يعتقد سـقراط أن العمل إذا كان مفيداً للإنسان حقاً يكون بالفعل صحيحاً وصائباً. لذلک يمكننا أن نعزو فلسـفة الأخلاق المعيارية على أسس نفعية، إلى سقراط أو بمعنى آخر نستطيع أن نعتبر سقراط مؤسساً لفكرة الأخلاق وفق النتائج والآثار المترتبة عليه. (غمبرتس، ١٣٧٥ش: ٦١٢) تُنسب نظرية الاعتدال أيضاً إلى أرسطو، مما يعني أنه يقبل النسبية في الأخلاق. «في رأيه، الشخص الحكيم هو من يهتم بما هو خير يسعى لتحقيق المصالح العملية، بدلاً من التفكير حول الفرضية.» (كابلسـتون، ١٣٧٠ش:٣٤٨) مدرسة المنفعـة هي نموذج تقليـدي لهذه الفرضية مع الفارق في اعتقادها بأن «أفضل سـلوک

أو تصرف هو السلوك الذى يحقق الزيادة القصوى فى المنفعة.» (فرانكنا، ١٣٨٣ش: ٤٨) وبالتالى يعطى الأولوية للمصلحة العامة للمجتمع ويقدّمها على الإنسان كفرد منعزل. فيما يتعلق بمسألة الأخلاق، يعتقد رورتى أيضا أن القيم الأخلاقية تتكوّن من خلال العمليات الاجتماعية والخطابية، ولا يمكن أن تكون للقيم الأخلاقية دور ثابت ومؤسس.

الأخلاقية المعيارية؛ هى فعل يتعلق بنتائجه وآثاره التى يمكن أن تكون جيدة أو سيئة، صحيحة أو خاطئة. وهناك آراء مختلفة «يعتقد البراغماتيون أن السلوك أو العمل يعدّ صحيحاً عندما يقع مفيداً لفاعله فقط. ويعتقد آخرون أن العمل يعدّ صواباً ومقبولاً عندما يكون مفيداً للآخرين بالإضافة إلى عامله. يعدّ كل من ديفيد هيوم[1] وجيريمى بنتام[2] وستوارت ميل[3] من مؤيدى هذه الفكرة.

الأخلاق الواجبة؛ هى ممارسة لا تستند فقط إلى النتائج ، ولكن أيضا إلى خصائص الإجراء نفسه أو الدافع وراءه الذى يحدد الخير والعمل. أيا كانت نتيجة العمل، فإنه لا يؤثر عليه سلباً أو إيجاباً. ويعدّ إيمانويل كانت من أبرز مؤيدى هذه الفكرة.» (بالمر ، ١٣٨٥ش: ١١)

بطبيعة الحال، فإن نظرية كانت فى الأخلاق كانت بعيدة عن البراغماتيين وهى قريبة من المثاليين. يتبع البراغماتيون الأخلاقية المعيارية التى تدخل حيز التنفيذ وتقدم النتائج المتوقعة للمجتمع. يتصرف البراغماتى دائما بطريقة مثمرة ومفيدة، وقد تُفقد القيم الأخلاقية فى بعض الأحيان وظيفتها.

فرضية بحث التسامح

يبدأ التسامح عندما لا يؤيد الإنسان تصرفاً وفقا للمعايير الأخلاقية وهذا لا يمنعه بأن يقبله. الشرط الأساسى لمعالجة مشكلة التسامح هو أولاً علينا أن ندرك بأن التسامح ليس قضية أخلاقية على الإطلاق. والتسامح غير المحدود يقوض نسيج المجتمع بقدر ما

1. David Hume .
2. Jeremy Bentham .
3. John Stuart Mill .

يعيق الاندماج الأخلاقي الشمولي للمجتمع. ابتكر رورتي مصطلح الليبرالية النخبوية. « يعتقد رورتي أن المجتمع الليبرالي ينبغي أن يستخدم التسامح كوسيلة لتقليل المعاناة والتمييز بين القضايا العامة والخاصة والتفريق بين القطاعين العام والخاص بشكل ملائم. من خلال هذا التفسير، يعتقد رورتي على الرغم من أن اللامبالاة والتسامح غير مسموح به لمن هو معرض لأوشفيتز (معسكر الموت) ولكنه له ما يبرره في ضوء تحسين المجتمع والمنفعة الاجتماعية.» (ديريدا، ١٣٨٥م: ٦٨)

البراغماتية في الشاهنامه

بعد شرح وجيز للبراغماتية، سيقوم هذا البحث بتحليل وتجسيد هذه الفكرة في الشاهنامه للشاعر فردوسي من أجل تقديم براغماتية موضوعية، وتحديد مدى تطابقها على أفكار فردوسي، والإجابة على الأسئلة المثارة. ومن هنا تتم دراسة الشواهد والأمثلة الموجودة في الشاهنامه من منظور أربع سمات مهمة من الواقعية: ١ – النفعية ٢ – العدالة ٣ – الأخلاق ٤ – التسامح وأخيرا (البراغماتية النتائجية) في ظل هذه المؤشرات الأربعة.

ملامح النفعية في الشاهنامه

كما أشرنا آنفاً، فإن البراغماتية تبرر بعض السلوكيات والقضايا نظراً لتطبيقها وفعاليتها في حياة الإنسان. إنه يوفر بالتالي تعريفا مختلفاً للأخلاق، وتأتي بعض المفاهيم كالتواري (التخفي)، والاحتيال والتمويه، أو العقلانية البراغماتية لتحقيق تطلعات المجتمع في ضوء النفعية. فيما يلي بعض الشواهد تتخذ فيها الشخصيات مثل هذه التصرفات والسلوكيات لتعزيز أهدافها.

• العقلانية البراغماتية (النفعية)

يرى فردوسي أن الشخص الحكيم مقياسه في العمل الذي ينجزه ولا يفعل شيئاً دون حساب وفكر. تدور الأفكار في الشاهنامه حول تحقيق المصالح السياسية والاجتماعية، والعمل العقلاني للشخصيات يكون ناجحاً عندما يكون الهدف المنشود هو حماية إيران

وتعزيز دين الزردشت. «فهذه العقلانية محدودة ونسبية وهى غير متناسقة مع عقلانية المثاليين المطلقة. من خلال هذا التفسير، فإن الرجال العقلانيين فى الشاهنامه يتقيدون بالأخلاق (المركّزة على النتائج) ويخرجون عادة بنتائج مرضية منتصرين.» (محمودزاده، ١٣٨٣ش: ١٠٧)

رستم ينتصر فى الشاهنامه بأسرها، ليس بشجاعته وإنما بقوة الفكر والحكمة. ليس للحكمة فى الشاهنامه أى محتوى فكرى يمكن البحث عنه عند العلماء فقط. يرى فردوسى أن الحكمة هى أداة واسعة يمكن من خلالها تشجيع جميع السلوكيات الاجتماعية من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً لصالح الترقية والتقدم. بناء على هذا يعتبر رستم شخصاً حكيماً وشعبياً يستخدم الحكمة للوصول إلى مصالحه ومصلحة الإيرانيين عامة.

• التخفى والاحتيال

على الرغم من أن الأبطال الإيرانيين صادقون فى الغالب، ولكنهم يلجأون أحياناً إلى شكل من أشكال التوارى والاحتيال. جسّد فردوسى نموذجاً من هذا الاحتيال فى قصة جردآفريد وسهراب. إن جردآفريد على عكس تهمتينة وروادبة وسودابة، لا تعيش خلف الكواليس. بعد إخفاقها فى هزيمة سهراب فى المعركة، تلجأ إلى الحيلة وتطلب من سهراب أن يرافقها إلى القلعة والاستيلاء عليها حيث تقول: من غير المستحسن أن يرى العسكر ما يجرى بيننا من المبارزة والقتال وسيعيبون عليک کونک تفرغ وسعک وتبذل جهدک فى مقاتلة امرأة. وسهراب الذى أصابه الذهول بعد أن رأى حسنها وجمالها شغف بها واغترّ بكلامها، فقد إحساسه بالمنطق للحظة وسقط فى فخ جردآفريد. فعطفت عنانها وسهراب معها، فلما حصلت وراء الباب أغلقوه فى وجه سهراب ... و جردآفريد مقاتلة رشيقة وذكية فهى لا تقاتل سهراب فحسب وإنما تحتال عليه أيضاً.

«التفت جردآفريد إلى سهراب قائلة: أين آساد الرجال وأبناء القتال،
سألقى البيضة عن رأسى ووجهى والعسكر يعيبون عليک فعلک
قاتل سهراب فتاة فى ساحة المعركة وقاتلت معه بشدّة وقسوة

الأولی بنا إخفاء الأمر فالحکمة خیر سلوک منا
فکشفت عن وجهها لسهراب بادرت بالحدیث ظهرت أسنانها کالعناب»
من حزن جردآفرید وهجیر تألم الصغیر والکبیر
قالوا أیها المرأة الشجاعة قلب المجتمع حزین من أجلک
فإنک قاتلت وفتنت وتلونت وعملک لیس بوصمة عار

(فردوسی،۱۳۸۷ش، ج۲: ۱۸۷)

فی قصة رستم وسهراب، تقوم تهمینة بإخفاء الحقیقة عن رستم خوفاً من أن یطلب الأخیر ابنه عنده، فقد أخفت تهمینة أن سهراب قد بلغ رشده فی السن الثانیة عشرة، لهذا عندما قدِم سهراب إلی إیران بحثاً عن والده، فکان متیفناً أن ابنه من تهمینة مازال طفلاً فسعی فی إفشال محاولات سهراب فی البحث عن والده وکشف هویته، معتبراً تلک التساؤلات والتحقیقات ما هی إلا محاولات مخادعة لانهزامه فی المعرکة.

حین سمع تهمتن بالکلام وقرأ الرسالة، ضحک مذهولاً من ذلک الفعل
لدی من ابنة ملک سمنجان، طفل ذکر وهو مازال صبیاً
أرسلت له الکثیر من المجوهرات، سلّمها أحدٌ لوالدته
جاء کردّ أن ذلک المبجل، سیصبح کبیراً عن قریب
نشأ علی المروءة وهو صغیر، فلابد أن یصبح شرساً مبکرا

(فردوسی، ۱۳۸۷ش، ج۲: ۱۹۶)

یقوم رستم أحیانًا بالغش والکشف عن الحقائق بطریقة مختلفة، وینهی اللحظات المصیریة للقصة لصالحه. یتخذ هذا السلوک مرة مع سهراب ومرة أخری مع اسفندیار. نعلم أن سهراب هزم رستم فی المعرکة الثانیة. ویجلس للدعاء منهکاً. یبحث عن النجاة والخلاص خارج ساحة المعرکة وقوته البطولیة. لأنه یؤمن بأنه لا یستطیع أن یصمد أمام سهراب الشاب. یطلب من الربّ استعادة قوته المفقودة التی خسرها منذ سنوات بناء علی طلبه، فی مثل هذه المواجهة المصیریة، تتحقق بالفعل رغبته. إن رغبته المتمثلة فی النصر وهدفه الوطنی الکبیر، تتسبب فی نصب فخ کبیر له یغریه إلی لعبة التخفی والاحتیال. عندما أمسک سهراب بحزام رستم وبطحه وجلس علی صدره واستلّ

خنجراً أراد أن يحتز رأسه، احتال عليه رستم وقال: ليس هذا من شأن المصارعة عندنا، بل كان من ساجل شجاعاً بالمصارعة فليس يبسط يده إلى قتله فى الصرعة الأولى بل حتى يصرعه ثانياً فحينئذ له ذلک. فاغترّ سهراب بكلامه وقام عنه وخلّى سبيله... ولما تخلّص رستم من يده قصد ماء جارياً هناک فشرب منه واغتسل وسجد يسأل الله تعالى أن ينصره على عدوّه .. ثم تشمّرا ثانياً للمصارعة لكن هذه المرة ألقى رستم بسهراب على الأرض وجلس عليه وسلّ خنجره مسرعاً وشقّ به حنجره.. ورستم أظلم نهاره.

قال رستم لسهراب أيها الشجاع، الفارس المقدام بالضراب والطعان
قواعد الحرب لدينا شيء آخر، وليس هذا من شأن المصارعة
إذا قام مصارع شاب، بضرب مصارع قديم،
فليس يبسط يده إلى قتله، حتى لو كان ذلک فى ساحة القتال.
بالاحتيال أراد رستم أن يتخلص، من قبضته سهراب ولا يصرع
عندما تخلص وأطلق سراحه، استعاد قوته كما لو كان سلاحا فتاكا
فقصد ماء جارياً يشرب منه، فبدا يتعافى بشربه الماء
شرب الماء أولا واغتسل به، فأصبح المنتصر بإذن الخالق المنان

طلب من الله أن يفوز فى معركة أخرى ضد سهراب، لكنه لم يكن مطلعاً من صروف الدهر. (فردوسى،١٣٨٧ش، ج ٢ : ٢٣٥)

أو فى قصة رستم اسفنديار، أخبر رستم اسفنديار كذباً فى نهاية معركة اليوم الأول فكرة الهروب. استغلّ رستم الفرصة للتحدث مع اسفنديار بمرونة ولطافة ويضع كبرياءه جانباً لما اقتضته المصلحة. ومنذ لقائه الأول مع اسفنديار، يحاول مراراً فتح حوار ومصادقة ويتحدّث إليه بكل مرونة وهداوة إلا أن سفنديار يرفض.

قال له رستم: أيها الأميرالنبيل، لقد سألت الله أن يجعل قلبک سعيدًا،
والآن أرى منک الأذى فأخشى أن يحدث مكروه وتُسلب الراحة منى
وهذا الطلب يمثل وصمة عار لى، ولا يمحى هذا الخزى عنى إلى الأبد

(فردوسى، ١٣٨٧ش ،ج ٦ : ٢٤٨)

وهكذا تبدأ المعركة. ويعود رستم مهزوماً مجروحاً مغلوباً على أمره بعد المعركة

الأولى، وعندما شاور أقرباءه في الأمر رأى أن الطريقة الوحيدة في الخلاص هو الهروب، ولكن "زال" يعارض ويطلب حلاً من العنقاء. رستم يقضي على اسفنديار بعد معرفته بسرّ موته الذي تعلّمه من العنقاء وذلك من خلال استهداف عضو في جسمه القوي المنيع. البطل الذي رسمه فردوسي في الشاهنامه وهو رستم تلطخ يده بدم اسفنديار دون خوف من عين لم تنم. رستم في كلتا المعركتين، قبل الخوض بحرب عرف أنه سيهزم فيها رغم رغبته الشخصية، خاصة في المعركة ضد اسفنديار. لكن مهمته تغلبت على رغبته.

ذكرت العنقاء حلاً لاسفنديار وقالت لرستم:

الحل في القوس وخشب الأثل يوضع في ماء العنب،

ثم يصب على عين اسفنديار اليمنى، عندما يكون الناس على استعداد لذلك،

ولكن اعلم أن من يسفك دم اسفنديار فلا مكسب له وسيعاقبه الدهر.

(فردوسي، ١٣٨٧ش، ج ٦ : ٢٩٩)

• **التمويه**[1]

التمويه أو المخادعة والمراوغة والاستحالة؛ هي أفعال براغماتية تظهر في بعض شخصيات الشاهنامه. فتلك الشخصيات تسعى من خلال تغيير مظهرها أو سلوكها لإخفاء هويتها الحقيقية، بغية الوصول إلى أهدافها. في قصة بيژن ومنيژه، عندما يحاول رستم إنقاذ بيژن، يجد أن حشد العسكر والمعركة لا يفي بالغرض، لذلك يرى الحل في أن يذهب شخصه مع مجموعة من الأبطال في زي التجار إلى توران لإنقاذ بيژن. عند وصوله إلى توران، كان يرتدي رداءاً صوفياً، وأنشأ مع رفاقه سوقاً خارج الحي يعرضون فيها البضائع والقماش. مثال آخر على ذلك نجده في قصة سهراب وجردآفريد، حيث نرى الأخيرة تختبئ وراء بيضة في محاولة تمويه منها تتنكّر من خلالها لسهراب حتى تظهر كرجل محارب تهاجم سهراب في المبارزة والقتال.

لبست المرأة السلاح، ولم يكن في ذلك الأمر تأجيل،

---

1. Disguise .

ووارت قرونها تحت الزرد ولبست درع الرجال الأبطال.

(فردوسى، ١٣٨٧ش، ج٢: ١٨٤)

ملامح الإطار الأخلاقى فى الشاهنامه

يعرف عن أبطال الشاهنامة أنهم متكلّمون بارعون إلى جانب السمات البارزة كالوطنية والحمية والشجاعة والتسامى الروحى والفكرى وكونهم أهل مرح وكبرياء وبراءة وتبجح. «يعتقدون أنه لا قيمة للنفس والمال والبنين والزوجات فى سبيل حماية العرش.» (صفا، ١٣٩٠ش: ٢٤٢) تبدو ملامح هذه الشخصيات فى الوهلة الأولى غامضة مغبرّة بغبار اللامبالاة والأنانية وحبّ الذات بعض الشىء. إنهم يتخلّون عن زوجاتهم وأولادهم، ويلجأون إلى الخدعة والمكيدة ويكتمون الحقيقة، وأيديهم ملطّخة بدماء أبنائهم وإخوانهم والنبلاء من الرجال تحقيقاً لأهدافهم السامية وما هى شخصية وفردية أبداً. فالجدل بين المصلحة الشخصية والمصلحة الوطنية- العامة، هو الصراع الأمثل يتخذه الأبطال فى تقرير المصير واتخاذ القرار، حيث إن الحبّ أيضاً لا يبعدهم عن مهامّهم فى صرف النظر عن رغباتهم وطموحاتهم تجاه المجتمع.

يتجنّب الأبطال الإيرانيون السحر والأكاذيب وهم معادون للسحرة المشعوذين كعدائهم لخصومهم وهم يلتزمون دائما بمبادئ البطولة والشجاعة فى ساحة المعركة. لكن التورانيين طالما يلجأون إلى السحر والشعوذة لاحتماء أنفسهم، ويجدون فى الدنائة والهروب خلاصاً. والهروب من ساحة الحرب يساوى الموت لدة الإيرانيين على عكس التورانيين، فإنهم يعتبرون الغارة والاقتحام وأمثال هذه الأفعال خزياً وازدراء. لكن فى بعض الأحيان نرى الأبطال الإيرانيين يكسرون قواعد القتال لإنقاذ إيران والشاه وحفاظا على السمعة، ويلجأون إلى الكذب والاحتيال والمكر والخدعة والتراجع. وذهذا ما نراه فى معركة پيران و گيو غيو حيث يلجأ الإيرانيون إلى هذه الأفعال والتصرفات. ونجد فى الشاهنامه أن الإيرانيين الذين لم يلجأوا أبداً إلى المكيدة والاحتيال فى ساحات الحرب، يتوسلون الآن بالحيلة لفتح القلاع الكبار كما توسّل "قارن" بالحيلة فى فتح قلعة دژالان:

سلم العسكر لشيروى وقال: أريد الآن الاختباء،
أسير إلى حاكم القلعة رسولاً، أريه بصمة الخاتم،
إذا دخلت القلعة لأرفعنّ الراية، والسلاح الرمادى،
أقبلوا على الحصن مباشرة، وإذا دخلتم الحصن أضربوا واقتلوا دون هوادة.
(فردوسى، ش١٣٨٧، ج١ : ١٢٧)

كذلك لفتح قلعة جبل "سپند"، انضم رستم إلى سلك تجار الملح تنكراً:
استمع رستم لأبيه وعدّ العدّة لما كانت تستحق المعركة.
وفى حمولة الملح أخفى العصا والصولجان، تحملها الأعناق والأعضاد.
أخذ معه بعض الأقارب الأبطال الذين كانوا فى حالة تأهب واستعداد.
وأخفى ذلك الفارس البارز سلاح البطل بين حمولة الإبل.

واسفنديار الذى يعدّ أيضاً رمزاً للصدق والاستقامة، عندما يجد نفسه غير قادر على دخول قلعة الملك أرجاسب المنيعة، يتنكّر بزى التجار ليتمكّن من الدخول فى القعة واجتياحها وتدميرها:

فى مكان مخادعة وفى مكان آخر خوف ورهبة، وتكون أحياناً مهرباً جميلاً وأحياناً لا تكون فى مكانها.
إذا دخلت القلعة تاجراً، أتخفى ولا أقول بأنى أنا بطل العالم المقدام.
سأجد طرق الخلاص من كل باب، و أقرأ كتاباً من العلم أكسبه من كل تجربة وامتحان.
(فردوسى، ١٣٨٧ش، ج٦ : ١٩٢)

واسفنديار شأنه شأن رستم يلجأ إلى الكذب والاحتيال فى الأراجيز. يمتدح والده لشجاعته وكونه ملكاً عادلاً، فى حين أنه لم يعتبر أباه شجاعاً وعادلاً من قبل. كما ينصح رستم بعدم الإحساس بالذل والعار عند الوقوع فى سلاسل وأغلال الملك، على الرغم من أنه هو نفسه كان يشكو بمرارة تحمل مثل هذا العار من قبل، وعندما ألقى رستم عليه اللوم لعدم دعوته للعشاء، قال اسفنديار الذى أخبر أخاه سابقاً أنه يريد إذلال رستم، قال بنبرة هادئة، أنا لم أشأ إزعاجك.

يعدّ **الثأر والحقد** الدافع الرئيس لجميع المعارك وأعمال العنف فى الشاهنامه،

وتشـــكل غالباً العوامل الداعية للحرب لدى أبطال الشاهنامه أيضاً. على الرغم من أن الثأر سمة مذؤومة، إلا أنه يعتبر أمراً بطولياً فى الشـــاهنامه، وكان الحقد طريقاً يســـلكه الأبطال. وفى جميع أنحاء الشـــاهنامه، يمثّل الحقد عاملاً رئيساً لأغلب المعارک على حدّ تعبير فردوســـى. وتصل حالة الثأر والانتقام أحياناً إلى أقصى حدّها، فمثلاً عندما قتل جودرز بيران غرف غرفة من دمه وتشـــرّبها تشفياً لســـياوخش وأولاده السبعين. وثأر رســـتم لنفســـه عندما وقع فى حفيرة فتمزّق بطنه وخاصرتـــه وكان ذلک من فعل أخيه شـــغاذ، فتناول رستم قوسه ووترها ففزع منه شغاذ فتترّس بشجرة فرمى رستم الشجرة بإحدى نشابتين فنفذت فيها وخلصت إلى شغاذ وخاطته مع الشجرة فتأوّه آهة خرجت معها روحه. ففرح رستم وحمد الله على ما يسّر له من إدراک ثأره بيده وقبل موته.

خاط رستم أخاه بالشجرة، وعندما خرجت روحه هدأت روعته

شكر رستم ربّه على ذلک وهو دائماً يشكر الربّ بعد كل فوز ونصر.

عندما قصدتنى بالقتل ورأيت الموت بأم عينى، لم يهدأ لى بال حتى أتشفى بقتلک.

دفعتنى إلى الموت بقوة وإكراه من قبل، ولهذا الجفاء أردت أتشفى لنفسى ثأراً وانتقاماً.

(فردوسى، ١٣٨٧ش، ج٦: ٣٣٣)

كما طلب رستم أيضاً ثأر سياوخش بعد مقتله. وفقصد بلاد توران، وسار إلى حضرة كيكاووس وقال له: «أيها الملک! قد حصدت ما زرعه سوء تدبيرک واجتنيت ما أثمرته شراســـة خلقک .. فقام رســـتم واقتحم على ســـوذابة وألقاها من تختها وجرّها بقرونها حتى أخرجها من خدرها فوسطها فى الطريق بنصفين.» دبير ساقى، ١٣٩٢ش: ١١٣)

اقتحم "تهمتن" على التخت، وأقبل على سوذابة لأمر،

أخرجها من خدرها وجرّها بقرونها، حتى تشحّط التخت بدمها،

فوسطها بنصفين بخنجره، وكيكاوس لم يحر جواباً عمّا فعل.

(فردوسى، ١٣٨٧ ش ، ج٣: ١٧٢)

ملامح العدالة فى الشاهنامه

تعدّ الشاهنامه مظهراً لثقافة وتاريخ إيران القديم وأسلوب إدارة البلاد وفن السياسة

فى إيران، وطالما حاول فردوسى تصوير حكومة عادلةٍ يجسدها فى كتابه الشاهنامة من خلال القصص وحكايات الملوك. وجاء فى الشاهنامه، أنه يجب على الإنسان أولاً أن يكون عادلاً فى ذاته وكيانه. كما نرى فى الوجود الإنسانى، جدلاً وصراعاً قوياً يجرى دائما بين قوى الخير والشر. يرى فردوسى «أن الاعتقاد بالعدالة والالتزام ببسط العدل أمر لابدّ منه وهو أساس لفكرة صفوة الملوك فى إدارة البلاد.» (محمود زاده، ١٣٨٣ش: ٦٦). ولكن الموضوع الهامّ، هو أن فردوسى والشاهنامه لم ينجحا بالكامل فى إقامة العدل. على الرغم من أن أساس عمل فردوسى يتمحور حول العدال، إلا أن هذه العدالة هى فى بعض الأحيان سلاح ذو حدّين يمكن أن ينتهك العدالة بنفسه ويخرج عنها بقدر ما يدعو إليها.

كما ذكرنا آنفاً، عندما ينتهى خبر مقتل سياوخش إلى رستم، يسير رستم إلى توران طالباً بثأر سياوخش ثم يوسط سوذابة بنصفين دون ترديد ولا محاكمة. و عمل رستم هذا لا يعدّ مذؤوماً فى رأى فردوسى ولا حتى يعاقب عليها. ونرى فى مكان آخر، أن سهراب يطلب من هجير الذى وقع فى أسره أن يرشده إلى مخيم رستم، ولكن هجير تفوّه بالكذب خوفاً من يصيب هذا البطل الشاب رستمَ بسوء، فغضب سهراب من فعلته وهدّده وعاقبه بشدة.

اختطفه بسرعة بالغة من سرجه وأوثقه فى أسره هجير لم يعمل شيئاً
ترجل عليه سهراب من الفرس ليحتز رأسه.

فردوسى، ١٣٨٧ش، ج٢: ١٨٤)
فطعنه برمحه من الخلف وألقاه من ظهر الفرس ثم أمكث مكانه.

(المصدر نفسه: ٢١٩)

ملامح التسامح فى الشاهنامه

يعنى التسامح فى الثقافة الإيرانية الإسلامية، أن المرء يعامل الآخرين بالتساهل والملاطفة ويتجنّب القسوة والفظاظة، لأن المرء إذا كان يحمل صفات سيئة مثل عدم التسامح والعنف والقسوة فهو لا يتمتع بمكانة اجتماعية مطلوبة. على الملك أن يعامل

رعاياه بلطف، ولا يعامل الخاطئ والمذنب بعنف، وأن يرفع من شأن الناس حفاظاً على كرامتهم الإنسانية. ولكن كما لاحظنا، فإن البراغماتيين يقدّمون الأخلاق العملانية ذا النتائج المثمرة والنافعة على الأخلاق الواجبة.

تتسم شخصية رستم فى الشاهنامه بأنها مزدوجة، تكون شخصية مثالية حيناً، وتظهر عملانية ذا نتائج مثمرة وما يعرف بالبراغماتية حيناً آخر. وهذا لا يحدث عادة مع شخصيات مثل زال وسام، لأنهما متحفظان متمسّكان بالتقاليد، فى حين أن اتجاه رستم فى الساحة السياسية فى عصره يفتقر إلى روح المحافظة والتسامح.

عندما مات منوچهر ذلک الملک الصالح، تربع ابنه نوذر على العرش. فتوجّه سام نحو دار الملک، تلقاه الأمراء والأكابر مبادرين ومشايعين، شكوا إليه سيرة الملک وسوء صنيعه بالرعية، وقال سام هذا لا يستحسن الربّ سوف أردّه إلى الطريقة المرضية والسيرة الحميدة، موجّهاً نصحه إلى نوذر. «يظهر موقف زال تجاه كيكاوس عند مهاجمة مازندران إلى مستوى من التحفظ، ما يشوّه سمعته من حيث الإنسانية.» (گرجيان، ١٣٨٣ش: ٢٢). فيعتبر زال مهاجمة مازندران أمراً لا جدوى له، ومهاجمة مازندران يؤدى إلى استئصال العسكر وإهدار الثروة المادية الإيرانية. ولكن إجابة كيكاوس تتعارض تماماً مع تحليل زال. والردّ النهائى لزال يذهل المرء حقاً:

قلت له أنت الملک ونحن الرعية، نتحدّث إليک بشفقة وحنان
فإن سلكت العدل أو أطلت يد الظلم، فرأيک هو أمر مطاع
إن لم تندم على فعلک، فاعلم أنک من يهدى الفكر وينير الدين.

(فردوسى، ١٣٨٧ش، ج ٢: ٨٣)

ولكن فى المقابل، نرى رستم يأتى برفقة جيو إلى حضرة كيكاوس. يغضب كيكاوس لتأخر رستم لدرجة أنه يأمر بقتل كليهما. يأتى ردّ رستم على خلاف التقاليد السياسية التى دفع زال إلى التحفظ بها، فردّه كان كسراً للتقاليد بامتياز.

فكل واحد من أمورک أنحس من الآخر، ولا تليق بک الشهريارية والملک،
لماذا يجرد على كيكاوس؟ ومَن كيكاوس؟ ومَن طوس حتى يمدّ يده إلى،
إنى طليق حرّ ولست عبداً لأحد، إنى عبد للإله فقط،

دعانى فرسان العسكر للملک، فزينوا لى التاج..
ولكنى لم ألتفت للملک حتى، فاحتفظت بالعادات والعرف
فلو قبلتُ بالتاج والتخت ملكاً، لم تكن تتنعّم أنت بالكرامة قطّ.
(المصدر نفسه: ٢٠١)

وفى ردّه على جودرز عندما توسّط بينهما قال رستم:
وما فزعى من كيكاوس؟ لست أفزع منه أبدا سواءٌ عندى كيكاوس والتراب.
(المصدر نفسه: ٢٠٤)

نرى سلوكا مشابها لهذا فى قصة برزو. عندما يرى أفراسياب برزو فى شنجان ويجده شابا مقتدراً، يطلب من أحد قادته رويين اصطحابه. يمتنع برزو طلب رويين. وعندما يسمع برزو باسم أفراسياب، يردّ برزو: إذا كان يطلبنى لأمر فاليأتى بنفسه. فيحدث صراع بينهما. عندما يشهد أفراسياب العراک من بعيد ينهض غضباً، إلا أن بيران ينصحه فى المصالحة مع هذا الشاب، لأنه الحصول على مثل هذا الشاب فى عسكرنا سيكون بصالحنا ويوافقه أفراسياب الرأى.

وهناک مثال آخر على السلوک المتناقض لرستم فى قصة رستم وسهراب. فعادة كلما كان يحدث مكروه لإيران وملكه، ينهض رستم على الفور إلى ساحة المعركة لإنقاذ الإيرانيين. فتوجهه نحو مازندران مسرعاً، وتنظيم معركة لإنقاذ الإيرانيين من الملک هاماوران، وأخيراً حضوره التاريخى فى معركته ضد أفراسياب، جميعها تدلّ على مثل هذا السلوک. «ولكن فى قصة رستم وسهراب، فإن ترديد رستم فى ذهابه إلى كيكاوس يدعو إلى التأمل نوعاً ما. فلم يطلب كيكاوس مساعدة من رستم أبداً حتى فى أصعب الظروف التى مرّ بها، حتى أثناء أسره فى مازندران. يرسل جيو لاستدعاء رستم. ورستم يتأخر خلافاً لما كان يصدر منه فى السابق من الاستعجال والمبادرة، فهو يدعو جيو إلى الشرب ويتوانى فى النهوض إلى حضرة الملک. فى النهاية يحذر جيو رستم أن الملک سيغضب من هذا التأخير.» (محمود زاده،١٣٨٣ش: ١١٠)
عندما سمع رستم ضحک وقال إن النصر لنا.
أنت يا شارب الخمر، إشرب الشراب البابلى ولا يهمّنک الأمر.

جاء الساقی وقدّم الشراب بسرعة، وابتهج رستم سروراً لهذا العمل.
قال جیو لرستم الفارس: یا من یلاطفه الملک والأبطال،
سأسیر إلی أفراسیاب، ولا أبقی حتی أستعید کرامتی.
(فردوسی، ١٣٨٧ش، ج٢: ١٦٢)

نحن نعلم أن رستم لیس من أهل الطرب ولا هو شخص غیر مسؤول یفکّر فی مصلحته الشخصیة فی أزمة اجتماعیة سیاسیة، واتجاهه نحو الشراب ومکوثه أیاماً فی الطریق الذی یظهر بأنه شخصیة تتسم بعدم المسؤولیة وعدم امتثاله لأوامر الملک، ما هو إلا قوة فی داخله تمنعه من حدوث کارثة. وهو من جهة أخری لا یرید معارضة کیکاوس یبحث عن طریقة متساهلة تتمثل فی تأخیر الامتثال لأوامر الملک.

رستم بین بطل مثالی أو براغماتی؟

تتجسد مشاعر فردوسی فی الأبطال بصورة عامة وفی شخص رستم علی وجه الخصوص. تتشابک حیاة رستم مع الحیاة الاجتماعیة لبلاده لدرجة أن أغلب إنجازاته تتعلق بتقلّبات تاریخ مجتمعه وبلاده. فقد کان لرستم دوراً بارزاً فی النیل من الجنی الأبیض (سپید دیو)، وفی هزیمة الإیرانیین فی مازندران وفکّهم من الأسر. کما لأفراسیاب دورٌ بارز أیضاً فی معارک جرت بین إیران وحبشة ومصر وهاماوران وسائر المعارک، ولکن رستم ارتکب أخطاء وزلاّت فادحة وجسیمة، حیث تلوّثت یده بدم ابنه. یقتل سوذابة دون محاکمة تشفیاً منه وانتقاماً. ویقضی علی اسفندیار النبیل. ویلجأ أحیاناً إلی الحیلة والسیاسة والتدبیر فی القضاء علی الأعداء ولیس ببأسه وصلابة جسمه یحاربهم. إن سلوک رستم المتناقض فی الشاهنامه یجعل أصابع الاتهام موجهة نحوه. ولکن السؤال هو؛ ألا یقوّضُ صمتُه تجاه مقتل سیاوخش وهزیمتُه فی المعرکة مع سهراب واسفندیار، مکانتَه البطولیة ووجاهةَ بسالته؟

من الواضح أن فردوسی کانت له نظرة شاملة وواقعیة بالنسبة لشخصیات قصته فی الشاهنامه وخاصة شخصیة رستم البارزة. فقد قام فردوسی بتصویر رستم کإنسان بکل خصائصه الإنسانیة قبل أن یجسّده بطلا فی قصصه. فرستم بطل بأعمال رمادیة.

يتصرف في بعض الأحيان كمثالي يتجاهل أي مصلحة أو منفعة حتى يبعث القلق في نفس القارئ إزاء الاحداث. وفي بعض الأحيان يدوس على كرامته لتحقيق هدف نبيل. لأنه يحمل عبئاً ثقيلاً من المسؤولية وهي انتصار إيران على غير الإيرانيين. ولا يعرف للفشل معنى. يقتل ابنه بيده حتى ينجز المهمّة التي كلّف بها. وفي الصراع بين الطموحات العامة وإحساسه الفردي، يقدّم المثالية الوطنية ويدفه ثمن بطولاته باهظاً. يعمل رستم كمثالي عندما يتعلق الأمر بالمصلحة الذاتية، وعندما يسعى إلى تحقيق مصالح وطنية وإيديولوجية واسعة النطاق، فإنه يعمل كبرغماتي عملاني. وهذه الملامح الواضحة لشخصية رستم، على الرغم من أنها لا تجعله شخصية ثابتة نوعاً ما في الوهلة الأولى، ولكن بنظرة أكثر تمعّناً نجد أنه لا يعتمد على الأعضاد القوية غير العادية فحسب ولكن أيضاً يمتاز ببراعة الأبطال البراغماتيين وتفكيرهم. وهذا ما يلزم أن يتصف به البطل المثالي.

النتيجة

صوّر فردوسي نوعاً من اليوتوبيا في الشاهنامه يكون فيها الانتصار حليفاً للأبطال الإيرانيين في الغالب. لكن شخصياته البطولية تقوم أحياناً حسب الظروف بقتل أقاربهم، ونصب العداء والكراهية لهم، تغضب حيناً وتلجأ إلى الخداع والأكاذيب حيناً آخر. ويجعل سلوك الأبطال فردوسي والشاهنامه معرّضاً للاتهام منم قبل الأخلاقيين، ما يطرح هذا السؤال نفسه؛ هل أبطاله أبطال حقيقيون أم أنهم يمتازون بسمات نقيضة للبطولة؟ يمكن العثور على الإجابة في الفلسفة البراغماتية. هذه الفلسفة لها رؤية خاصة للسمات الأخلاقية، وبناء على هذه النظرية، فإن البطولة، عمل يتجاهل المنافع الشخصية في سبيل تحقيق المنفعة العامة. وجميع أعماله البطولية هي براغماتية تعتمد على النتائج المثمرة. من خلال هذا التعريف، فإن أبطال الشاهنامه الذين لم يهتمّوا إلا بانتصار إيران على الأغيار ومن وراء اتباعهم الصفات الرذيلة (في الفلسفة الإسلامية) هدف وطني وسام، هم الأبطال الحقيقيون.

وبالتالي، يمكن أن نستنتج أن تصرفات الشخصيات البارزة في الشاهنامه وخاصة

رستم، تتسق إلى حد كبير مع أفكار البراغماتية فى مجال الأخلاق الغائية والعدالة والتسامح والتعامل مع مصالح المجتمع وتجاوز المعايير الأخلاقية. والشاهنامه تتماشى مع هذا الفكر الفلسفى أكثر من أى فلسفة أخرى. لا تتناقض تصرفات رستم العملانية البراغماتية ونفعيته مع شخصيته البطولية والبطولة أبداً، مما يدل على مسؤوليته وحكمته. إن شخصيته وسلوكه الواضح كتب الانتصارات له ولمجتمعه. لطالما كان الأبطال الملحميون إما أشخاصاً مثاليين مثل أشيل، وسيغفريد، وجلجامش الذين تضرروا من ناحية أخلاقهم الوظيفى (الواجبى) أو لكونهم براغماتيين كأوديسة حيث إن انتصارهم تحقق من ناحية أفكارهم العقلانية. رستم هو الوحيد الذى يعكس المظهر الكامل لهذا التناقض فى شخصية معينة تجعله إنساناً كاملاً.

بما أن النظرة التقليدية تجاه أفكار الفلاسفة النظريين لا تفتح مجالاً فى العالم المعاصر، فإن أداء البراغماتية يعتبر سلوكاً مفضلاً، وقد اكتسب البشر التجربة العملية هذه فى ظل التغيرات والتقلبات على مدى التاريخ، والهدف، تحسين المجتمع. والعمل، وسيلة لتحقيق الأهداف، ويمكن ترسيم جميع المعايير الأخلاقية والاجتماعية أو تفكيكها من حيث الظروف الاجتماعية والسياسية. تمتد فلسفة البراغماتية إلى فكرةٍ مفادها أن المجتمع المثالى لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الإجراءات العملية التى يقوم بها الناس وأبطالهم، ويمثل فردوسى هذه الفكرة بوضوح فى الشاهنامة.

المصادر والمراجع

آدورنو، تئودور. (١٣٩٥ش). علیه ایده آلیسم. ترجمة مراد فرهاد پور. طهران: هرمس للنشر.

پالمر، مایکل. (١٣٨٥ش). مسائل اخلاقی. متن آموزشی فلسفه اخلاق. ترجمة علیرضا آل بویه. طهران: پژوهشگاه علوم وفرهنگ اسلامی.

جیمز، ویلیام. (١٣٨٦ش). پراگماتیسم. ترجمة عبدالکریم رشیدیان. طهران: انتشارات علمی وفرهنگی.

حلبی، علی اصغر. (١٣٩٣ش). سیر فلسفه در اروپا. طهران: زوار للنشر.

دبیرسیاقی، سید محمد. (١٣٩٢ش). برگردان روایت گونه ی شاهنامه ی فردوسی به نثر، طهران: قطره.

دریدا، ژاک. (١٣٨٥ش). دیکانستراکشن و پراگماتیسم، ترجمة شیوا رویگریان، طهران: گام نو.

دورانت، ویل. (۱۳٤۲ش). تاریخ تمدن. ترجمة مهرداد مهرین. ج ۱. طهران: مؤسسة فرانکلین للنشر.
ساهاکیان، ویلیام ومیبل لتوساهاکیان. (۱۳۸۰ش). افکار فلاسفه بزرگ. ترجمة گل بابا سعیدی. طهران: بحر دانش
سیزیان موسی آبادی، علیرضا وشعیب بهمن. (۱۳۸۹ش). «پراگماتیسم و سیاست بررسی و نقد پراگماتیسم در قلمروسیاست وحکومت». فصلنامه تحقیقات سیاسی وبین المللی، ش ۵. زمستان ۱۳۸۹. صص ۱۲۳- ۸۹.
شفلر، اسرائیل. (۱۳۸۱ش). چهار پراگماتیست، درآمدی انتقادی بر فلسفه ی پیرس، جیمز، مید ودیوئی، ترجمة محسن حکیمی. طهران: نشر مرکز
صفا، ذبیح الله. (۱۳۹۰ش). حماسه سرایی در ایران. طهران: فردوس للنشر.
طوسی، خواجه نصیرالدین. (۱۳٦٤)، اخلاق ناصری، طهران: خوارزمی.
فردوسی، ابوالقاسم. (۱۳۷٦ش). شاهنامه فردوسی، مسکو: طبعة مسکو.
فروغی، محمد علی. (۱۳۹۳ش). سیر حکمت در اروپا، طهران: زوار للنشر.
فرانکنا، ویلیام کی. (۱۳۸۳ش). فلسفه اخلاق. ترجمة هادی صادقی. ط ۲. قم: کتاب طه
کاپلستون، فردیک. (۱۳۷۰ش). تاریخ فلسفه. ترجمه بهاءالدین خرمشاهی. ج ۱. طهران: علمی وفرهنگی وسروش.
گرجیان، رحیمه. (۱۳۸۸ش). کلیات شاهنامه به نثر. طهران: پویان للنشر.
غمبرتس، تیودور. (۱۳۷۵ش). متفکران یونانی. ترجمة محمد حسن لطفی. ط ۱. ج ۲. طهران: خوارزمی.
محمودزاده، محمدرضا. (۱۳۸۳ش). افراسیاب در اسطوره وحماسه زخم عمیق رستم. طهران: قطره للنشر.
Audi, R. (1995.) "Pragmatism in R Audi(ed)". The Cambridge Dictionary of Philosophy
2th ed. Cambridg: Cambridge univ. Press. P. 638
Lucy, Niall. (2004). A Derrida Dictionary, Malden and Oxford: Blackwell Publishing Ltd.
Putnam, R.A. (2001.) "Pragmatism In L.C.Becker & Ch.B. Becker(eds)".
Encyclopedia of Ethics. 2 th ed. Vol.3. London and New York: Routledge. PP. 1361-64.
Tiles, J.E. (2000.) Pragmatism in EthicsIn Concise Routledge Encyclopedia of Philosophy
London and New York: Routledge. P.705.